أين الجوهر الفرد

ماري كوريللي

{عن كتاب الآباء والأبناء}

يلوّح الصبي ليونل بيده مودّعا أستاذه، ويعود والألم يـرزح ثقـيلا فـوق صدره ويقفر الدنيا أمام عينيه.

وحين يصل المقبرة المترامية أمام الكنيسة يسير بخطـى متّئـده مطرقـا برأسه كشيخ أحنت السنون ظهره.

وتحين منه نظرة الى ما وراء قبر فيرى رأسا أشيب يخرج فجأة من بطن الأرض وعينين زرقاوين واسعتين تنظران اليه في تساؤل..فيذعر ويتراجع الـى الوراء، ولكنه يسمع صوتا يخاطبه بلهجة ريفية رقيقة : "لاتخف يا سيدي" فيقـول الصبي في أدب وهو يرفع قبعته الصغيرة الحمراء محييا: "انني لست خائفـا يـا سيدي فشكرا لك. ولكنني فوجئت بظهورك.فلمن هذه الحفرة الواسعة التي تنثلها؟"

فيبتسم الرجل ويقول ضاربا الأرض بمعوله: "انه لـلأم تـويللي. كانـت رحمها الله تحب المكان الفسيح، وكانت في حياتها تشبه زكيبة كبيرة ملأى بالقش، وها هي ذي قد ذهبت للقاء ربها وما من انسان يذكرها بسوء."

- "هل تعني أنها ماتت؟"

- "نعم انتهت حياتها في هذه الدنيا، ولكن ما الدنيا وما الحياة؟ نسمة نلفظها فينتهي كل شيء. ان الآخرة لأبقى ولها وحدها يجب أن نعمل ليل نهار."

فيجلس ليونل على حجر وينظر الى الرجل في دهشة ويقول: "عجبا لـك! اتكون في مثل هذه الضخامة وتؤمن بالخزعبلات؟"

فيكف الرجل عن عمله في الحال، وينظر الى الى الغلام من رأسـه الـى قدميه ثم يردد ببطء: "كيف أومن بهذه الخزعبلات! ياإلهي ماذا اسمع! فأر صغير يصف أمل الإنسان في السماء بأنه خزعبلات؟ أسأل الله لك الهداية أيها المسكين. ما اسمك، ومن لقنك هذا الكفر؟"

فيحمرّ ليونل ويجيب مرتجف الصوت:

- "اسمي ليونل، ليونل فالكور، الإبن الوحيد للسير جون فـالكور الـذي استأجر القصر العظيم هناك."

ويومئ بيده الى القصر ويردف: "تلقيت علومي على يد نخبة مختارة مـن كبار الأساتذة، واستوعبت علوما كثيرة.. وقد وصفت الدار الآخرة وأمـل النـاس فيها بأنها خزعبلات كما لقنني أساتذتي."

- "جميل أن تكون هناك آخرة. ولكن العلماء يقولون أن هذه خرافة قديمة، وأبي يقول أنه لا يوجد في هذا الزمن إنسان عاقل يؤمن بهذه الخرافة. والكتب العلمية تثبت لك، أنك متى وضعت في قبر كهذا فمعنى ذلك أنك متّ وذهبت الى غير رجعة، وأنك لن تر الشمس ولن تسمع تغريد الطيور ولن تعلم لم خلقت. وهذا يبدو لي عجبا، ومتناهيا في القسوة أن تطعم الديدان جسدك. ولكن! أليس خرافة أن تعتقد بأنك ستبعث حيا بعد أن تأكلك الديدان؟ ذلك ما كنت أعنيه حين سألتك كيف تؤمن بهذه الخزعبلات، فرجائي أن تصفح عني فما قصدت الى إساءتك."

ولا يجيب الرجل.. ويعبر وجهه الطليق عن مزيج من الإحساسات، دهشة وألم وإشفاق وشيء من الإشمئزاز، وتتلاشى الإحساسات جميعا في ابتسامة رقيقة ويقول: "إساءتي! كلاّ إنك لا تسيء الي، ولو حاولت فما أنت الاّ طفل."

- "تقول أنك ابن سير. أما أنا فحارس المقبرة ومعبّـد الطـرق وفـلاّح ونجّار. أزاول كل عمل تستطيعه يداي القويتان أن تؤدياه شرط أن يأتيني بـرزق ولا يضرّ أحدا. أنظر الى يدي وساعدي!" ويرفع ساعدا قوية متينـة العـضلات ويستطرد: "انهما مصدر رزقي، وعليهما أعتمد في الحصول على الطعام والثياب لنفسي ولإبنتي، وأني أعلم أن يوما سيأتي، يوضع فيه ساعداي فـي قبـر كهـذا وتستحيلان الى تراب لإنماء العشب فوق جدثي فما يضيرني ذلك؟ انني لن أكـون حينذاك بحاجة اليهما فسأكون حيا في مكان آخر.. في صورة أخرى تلائم عالمها الجديدكما تلائم أجسادنا هذه الدار وستكون لي ذات الروح الطيبة أو الخبيثة التـي لي في هذه الدنيا."

ويرفع عينيه الزرقاوين الى السماء الصافية ويـستغرق فـي التفكيـر. ويقول الصبي:

- "عفوا يا مستر.."

- "مستر نورمان"

- "عفوا يا مستر نورمان ماذا تعني بكلمة الروح، وما هي الروح؟"

فينظر حارس القبور الى الصبي بإشفاق ورحمة ويردد: "ما هي الروح! إنها الحياة في كياننا. إنها قبس من الله خالد الى الأبد، وستدرك هذا أيها الـصبي المسكين متى كبرت وترعرعت وأحسست بفضل الله علينا ورحمتـه بنـا نحـن الخاطئين الجاحدين."

فيسأله ليونل: "وصديقتك الأم تويلي هل كان لها ما تسميه روحا؟"

-"نعم كانت لها روح، روح كبيرة نبيلة، كانت لها روح ملاك، في جـسد كبير مترهل قد لا يسرّك مرآه."

ويسأل ليونل بفضول: "أرجوك أن تنبئني يا مستر نورمان كيف علمت أن لها روحا نبيلة؟"

- "أيها العزيز. متى رأيت امرأة متقدمة في السن معدمة لاتملك شيئا، ولا تنعم بشيء مما يحبب الحياة للناس، متى رأيت هذه المرأة راضية بعيشها المرير، قانعة بقسمتها الضئيلة، تستقبل يومها بوجه باسم وعينين ضاحكتين، تحنـو علـى الصغير وتصفح عن المسيء وتحسن الى الناس جميعا، وتحمد الله على كل دقيقة وكل ساعة وكل يوم وكل عام من الأعوام الثمانين التـي قـضتها فـي الـضيق والحرمان والمسغبة، أقول متى رأيت امرأة هذا حالها، أيقنت بغير شك أن هنـاك شيئا أنبل وأقوى من جسدها المتعب المحطّم المـسكين يـشد أزرهـا، ويقـوي عزيمتها، ويوحي اليها بالصبر والجلد."

- "أجسادنا ليست الاّ غلافا رقيقا ضعيفا يا بني ولولا الروح التي تمـسكنا لتهالكنا، وانهارت أجسادنا ترابا."

فيتنهد ليونل ويقول: "أظنك على حق، ويجب أن أومن بايمانك وان كنـت تعلمت غير هذا، ولكنني أعتقد يا مستر نورمان أن روحا كالتي تتحدث عنها يجب أن تكون شيئا إستثنائيا كالعيون الزرقاء مثلا. فليس جميع النـاس زرق العيـون، ومن المحتمل أن لايكون جميع الناس لهم أرواح. وسأضرب لك مثلا بأبي، فـان غضبه يضطرم لو قلت أن له روحا، وأنا أعلم أنه لايريد أن تكون له روح."

ويصمت حارس القبور وينظر الى وجه الصبي في دهشة يعجز لـسانه عن التعبير عنها.

انه رجل ساذج، يخاف الله ويكدح في سبيل العيش، ويقنع بنـصيبه فـي الحياة.. لم يصل الى سمعه قط صدى المحاولات العقيمة بين الناس فـي المـدن الغاصة بالسكان، حيث يوصد الرجال والنساء ضمائرهم وقلـوبهم دون الله كمـا يوصدون بالعمارات الشاهقة نوافذهم دون أشعة الشمس وزرقـة الـسماء، ومـن المؤكد أن لم يخطر له قط ببال أن في الدنيا حكومة تقر إهمال الدين فـي تثقيـف النشء لتخرّج للمجتمع أبناء يسرقون ويقتلون ويبطشون بآبائهم بلا خوف من الـه أو وازع من دين.

لذا راح ينظر الى الصبي كأنه مخلوق من خوارق الطبيعة، ويعصر ذهنه في دهشة وحيرة يتساءل كيف يستطيع إقناع الصبي بوجود الروح.

* * *

وفي صباح اليوم التالي كان ليونل يقف أمام أستاذه الجديد يحدجه بنظرة فاحصة ناقدة:

- "طاب صباحك يا سيدي الأستاذ."

ويرفع الأستاذ رأسه بحدّة وينظر الى الصبي من قمة رأسه الى أخمص قدميه:

- "سأمتحن ذكاءك.. من الضروري أن أعرف مقدار ثقافتك فـأرجوك أن تقف حيث أنت وتضع يديك وراء ظهرك لأنني أمقت الحركات العصبية. ومتـى

أجبت عن سؤال فانظر في وجهي. ان لي طريقتي الخاصة في الإمتحان فـ روّض نفسك عليها."

"نعم، نعم لكل أستاذ طريقته الخاصة."

ويشرع الأستاذ في استجوابه بدقة وصرامة ولم تنقض ساعة حتـى تتملكـه الدهشة لذكاء الصبي وسرعة خاطره. ان غلام الحادية عشرة يعرف من الحقـائق والمعلومات أكثر مما عرف هو حين كان في العشرين من عمره.

ويعبر عن ارتياحه لنتيجة الإختبار بقوله "عليك أن تضاعف جهدك اذا أردت أن تفوز بثقتي." ويتناول ورقة وقلما ويشرع بالكتابة:

- "سأكتب لك موضوعات عليك أن تعدّها للغد."

ويتأمل ليونل يد الأستاذ المعروقة تتحرّك بسرعة على الورق ويسأله:

-"هل تسمح لي بعد فراغك أن ألقي عليك سؤالا يهمني كثيرا معرفته؟"

فينظر اليه الأستاذ بفضول ويهم بالإجابة سـلبا، غيـر أن ذكـاء الغـلام وتعطشه الظاهر لاستيعاب الحقائق وما بدا من طاعته ودماثة خلقه نزيل التبـرّم الغريزي في نفس أستاذه.

-"حسنا، سل ما تشاء" ، ويترك القلم ويعتدل في مقعده ويبتسم للغلام مشجعا. فيتقدم ليونل خطوة وهو ينظر في وجه أستاذه بإمعان: "انك واسع العلم والمعرفة يا سيد، ويقول البعض أنك في طليعة علماء البلد، فهلاّ أوضحت لي أمرا يحيّرني منذ زمن طويل، أريد أن أعرف أين الجوهر الفرد؟"

فيردد الأستاذ بحركة عنيفة "أين الجوهر الفرد؟ ماهذه الحماقة يا غلام؟ ماذا تعني؟"

-"هذا ليس يا سيدي حماقة، فالجوهر الفرد أصل علمنا. اننا أحيـاء، أنـا وأنت وملايين البشر، كلنا أحياء نسعى في هذه الأرض.. ولكن الكتب تؤكد لنا أن هذا الكوكب ليست الاّ كوكبا صغيرا كأصغر كواكب السماء، وأن هنـاك ملايـين

أخرى من الكواكب الكبرى، وملايين أخرى من الكواكب الصغرى التي لاترى الاّ بأدق آلات الإبصار. كل منها من خلق جوهر واحد فأين هذا الجوهر العجيب؟"

وتبرز عينا الأستاذ من محجريهما، ويحملق في وجه الصغير في دهـشة وحيرة ولا يسعفه ذهنه بجواب شاف، ويستطرد الصبي:

- "لم يكن بودي أن ألقي عليك هذه الأسئلة لولا أن قيل لي أنك عالم حكيم واسع الإطّلاع والعلم والمعرفة، وكنت أنتظر بفروغ صبر رجلا مثلـك حكيمـا عاقلا يوضح لي ما استعصى علي إدراكه. كان لي قبلك أستاذ له عقيدة خاصـة تختلف كل الإختلاف عن عقائد سائر الفلاسفة في هذا الزمن. يعتقد بوجـود الـه قادر عظيم خلق الدنيا والكائنات وهيمن عليها. وكان لي أسـتاذ قبلـه يقـول أن الجوهر الفرد هو مجموع الذرات التي تتألف منها الخليقة. فهل توضح لـي هـذه الأفكار وترشدني سواء السبيل؟"

فيسعل الأستاذ ويجيب:

-"انك تريد أن تعرف ما لايعرفه أحد. من البديهي أن يوجد عامل أول في كل شيء ولكن ما هو؟ ومن أين جاء؟ فذلك سر عميق لاقرار له، ولكننا نعلم يقينا أنه يعمل ونرى دلائل عمله في الخليقة حولنا."

فيظلم وجه الصبي يأسا وحيرة ويقول:" انك تدعوه عاملا أول فهل أنـت واثق أن هذا العامل الأول هو الجوهر الفرد؟"

ويقطب الأستاذ حاجبيه ويجيب: "لاأحد يثق بشيء في أمور كهذه، فجميـع آرائنا تنهض على الحدس والتخمين."

وترتسم على شفتي الصبي ابتسامة احتقار وأسى : "اذن فعقيدتك تـنهض على مجرد الحدس والتخمين ولا فارق في ذلك بينك وبين أجهل الناس. ولكننـي أعتقد أن من الحماقة أن تنسب خلق هذه الدنيا الى ذرة أو عامل لايفهم ولا يعقل. أن من خلق الدنيا والكائنات يجب أن يكون أسمى من كل ما خلق، ويجب أن يكون حكيما منصفا عالما بكل شيء. وليس في صنع الطبيعة شيء يفهـم أو يعقـل أو يشعر."

وهنا يثب الأستاذ عن مقعده بعنف يعتزم تبديد أدلّة الصبي:

- "من الحقائق الثابتة أن العناصر والذرات تسيطر علينا سـيطرة تامـة. فهناك عناصر المرض التي تسبب الموت، والعناصـر الطبيعيـة التـي تحـدث الأعاصير والزلازل. والعناصر التي تنفذ الى خلايا العقـل فتحـدث التفكيـر . والعناصر التي تتحرك وتنتقل فتحدث التطورات في الحياة البشرية، وفي مقدوري أن أضرب لك أمثالا كلها أدلّة ملموسة على تحكمها فينا وسيطرتها علينا ولكنك لن تدرك حقائق العلوم الحديثة . ومن المضحك أن ينبري رجل مثلي لمناقشتها مـع صبي في مثل سنك."

ويتنهد ليونل ويجيب: "كنت أرجو أن أجد عندك ايضاح ما أغلـق علـي فهمه. انني طفل تعس، ولو كنت سعيدا لما فكرت. ولا شك أنك تفهـم شـعوري فالإنسان حقيق بأن يزهد الحياة اذا علم أن لارجاء فيها ولا أمـل بعـدها. وانـه لايعدو أن يكون ذرة صنع ذرة أخرى لاتفهم ولا تعقل ولاتدبر. وربما كان أقرب الى الفهم والمنطق أن يتفق العلماء الى أن صانع الكون خالق عظيم علـيم حـي خالد. يرى ويسمع ويعطي ويمنع ويصرف الأمور بحكمته العالية."

ولم يتمالك الأستاذ من الشعور بالحرج فيقول: "تحدثت في الموضوع بمـا فيه الكفاية، ولو ألقيت علي الأسئلة عاما كاملا لما وجدت ما أقوله لك أكثر ممـا قاله العلم. فنحن لانعلم شيئا عن أسباب وجودنا في هذه الحيـاة. ويمتقـع وجـه الصبي ويقول: "اذن فالحياة شيء قاس لاقيمة له. فلا معنى أن يخلق الانسان بـلا سبب ويعيش بلا أمل."

_ "هذا اسفاف. نحن أحياء ، وما دمنا أحياء فيجب أن ننعم بالحياة."

- "هذا لاقيمة له ما دام الموت نهاية الحياة. ألا تؤثر الموت على الحياة؟"

فيجيب الأستاذ بضجر: "كلا بغير شك. لايوجد انسان عاقل يؤثر الموت على الحياة وأنا شخصيا أتمنى أن أعيش أطول مدة ممكنة."

- "أحقا تقول؟ ما أعظم الفارق بيني وبينك، انني أفضل الموت على أن أبلغ مثل عمرك وأصيب مثل علمك."

فيقول الأستاذ مغضبا: "اتقصد الى إهانتي؟"

- "كلا البتة. ولكنني أنظر في جزع الى سنوات حافلة بالدرس والتحصيل والكد الجثماني والعقلي من أجل لا شيء . أتريد التنزه في الحديقة؟ ها هي قبعتك وعصاك."

ويقدمهما اليه باحترام، فينظر الأستاذ بذعر الى الفيلسوف الصغير.

- "الرأي عندي أن تأخذ بالحقائق وتترك ما عداها. كل تفكيرك وعملـك يجب أن يتصل بالدنيا ولا شأن لك بغيرها." وينصرف مسرعا يسعى الى الخلاص ويبقى الصغير وحده فيهز رأسه ببطء ويقول:

"واعجبا لهؤلاء الناس ، انهم يغضبون حين لايفهمون."

ولكن لكل عصر مفاهيمه، فلم ينجح ليونل في الحياة!..

في قلبه نزاع وفي نفسه فوضى.

انسان أنكر عليه نعمة الإيمان، وانتزع من قلبه معرفة الله وحبه ومخافته.

انسان سأل لماذا، فلم يسمع جوابا، ولم يجد من يقتنع بأن لماذا على لسان الطفل هي مفتاح السعادة وأساس المدنية.

* * *